

الإصلاح والتغيير في نهضة الإمام الحسين عليه السلام



الإصلاح والتغيير في نهضة الإمام الحسين عليه السلام

محاضرة لسماحة آية الله الشيخ محسن الأراكي في يوم الثلاثاء الثالث من محرم الحرام 1433هـ الموافق 29 نوفمبر 2011

لا بد أن نشرح بعض المفاهيم التي تردت كثيرا في نظرية التغيير الاجتماعي كمصطلح الثورة والإصلاح والتغيير والعنف والسلم والحرب والأمر والنهي وهذه المصطلحات على نوعين: النوع الأول مصطلحات مضمونية

والنوع الثاني مصطلحات منهجية أو شكلية.

المصطلحات المضمونية هي التي تدل على مضمون عملية التغيير، بينما المصطلحات المنهجية لا تمس عملية التغيير. حينما نقول إصلاح أو ثورة أو تغيير فهي تمس العملية التغييرية. وإذا قلنا عنف أو حوار أو

كلمة أو سلم فهذا النوع يمس شكل التغيير أو أسلوب التغيير.

هنالك مصطلحات أساسية للمضمونية فمصطلح التغيير ورد في القرآن الكريم كثيرا وفي كلمات الأئمة خصوصا في كلمات الإمام الحسين عليه السلام.

إن سبحانه وتعالى قال: (إن ا لا يغير ما بقوم حتى يغير ما بأنفسهم)، (ذلك بأن ا لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن ا سميع عليم).

هنالك مصطلح يقرب من التغيير وهو التبديل (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا ا عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا). وكذلك مصطلح التحويل (ولا تجد لسنة ا تحويلا).

التبديل والتحويل والتغيير هي متقاربة ولكنها تشير إلى انتقال من حالة إلى حالة أخرى.

التحويل تعني سنة ا لا تتغير وكلمة التحويل معناها الحول أي الحركة التحويلية الكاملة فالانتقال من حول إلى حول هو تغيير سنة ما إلى سنة أخرى.

والميثاق هو بين العبد وربّه فميثاق الفطرة هو ميثاق عام وهو الصلة بين الخالق والمخلوق. مضمون هذا الميثاق أن نتكيف بما كيفه ا لنا. فكل من يخلق يكون قد اخذ على نفسه هذا الميثاق (وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

يوجد لدينا ميثاق بالإسلام وميثاق الإيمان وهو الطاعة والخضوع، حينما نشهد أن محمدا رسول ا معناها أننا أخضعنا أمرنا للنبي محمد صلى ا عليه واله وسلم. أما ميثاق الإمامة وهو ميثاق النصر (من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله) الميثاق هو أن الإنسان يطيع الإمام وميثاق النصر أن ينصر الإمام. وميثاق النصر جاء في نص القرآن الكريم (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به)، (تؤمنون با ورسوله وتجاهدون في سبيل ا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).

وهذه هي النصر التي طلبها الإمام الحسين في عاشوراء عندما قال (هل من ناصر ينصرنا).

في زيارة الإمام الحسين عليه السلام (إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم). إننا ملتزمون بهذا

الميثاق والطاعة والوفاء (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق). الفارق الأساس بين المنافق والمؤمن هو الالتزام بهذا الميثاق.

مصطلح التغيير يأتي في سياق آخر (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغير ما بأنفسهم)، (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله). هذه الآيات تخص وضع المسلمين في المدينة المنورة والنعمة التي من الله عليها هي نعمة القيادة الإلهية (الرسالة والإمامة) التي كفروا بها وأشار إليها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً). وان هذه النعمة تعبر عن نعمة القيادة الإلهية وان لا تتم النعمة إلا بعد أن يجمعهم تحت قيادة إلهية والتي تم تعيينها في يوم الغدير الذين اجتمعوا على ولاية وبيعة أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام. وأشار الرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم إلى الطاعة والنصرة إلى الإمام علي عليه السلام (والي من والاه... وانصر من نصره).

الرسول ابتعثه الله وخضع إلى ميثاق النصر والطاعة لله تعالى. وحين تتم النعمة على القيادة الإلهية تصبح نعمة تامة إلى البشرية وإذا دخلت البشرية إلى نصره هذه القيادة فان الله يفضل هذه الأمة (قَالَ يَا بُدَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤُوسَ الَّذِينَ إِخْرَجُواكَ عَلَيَّ إِخْرَجُواكَ فَيَكْبِدُوا وَلَئِنَّكَ كَيِّدٌ بَاغٍ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). والنبي يوسف عليه السلام أثناء تواجده في السجن قال (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَبَّيْئًا تَقُومَا بِهِمَا إِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ وَإِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ وَإِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ وَإِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ). والنبي يوسف عليه السلام أثناء تواجده في السجن قال (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَبَّيْئًا تَقُومَا بِهِمَا إِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ وَإِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ). والنبي يوسف عليه السلام أثناء تواجده في السجن قال (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَبَّيْئًا تَقُومَا بِهِمَا إِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ). والنبي يوسف عليه السلام أثناء تواجده في السجن قال (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا لَبَّيْئًا تَقُومَا بِهِمَا إِنِّي لَنَبِيٍّ لِّكُلِّ شَيْءٍ مُّسَلِّمٌ إِلَّا لِرَبِّهِ أَتِيئُهُ وَأَسْلَمُ).

القرآن يعبر عن حالة القيادة بالفضل (إن فضل الله كان عليك كبيرا)، وهذا الفضل هو ميزة عظيمة وهي ميزة القيادة.

الأمة التي تدخل في ميثاق لهذه النصر تكون مفضلة وأمة رائدة وعلى الأمم الأخرى أن تتبعها (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا

من العالمين)، (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْزَيْتُ لَكُمْ الْوَسِيلَةَ إِلَى الْوَعْدِ الْعَلِيِّ). عندما اتبعت القيادة الإلهية فإن الله أتم النعمة عليكم ولكن الله انتزع هذه النعمة منهم لأنهم نكثوا ميثاقهم (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلًا كُلًّا مِمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ)، (والقينا عليهم العداوة والبغضاء)، فانتزع منهم ذلك الشرف والتفضيل.

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء)، (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله).

فعصيان القيادة الإلهية يخلف الذل لكن الله وعد نبي الله إبراهيم عليه السلام بان يجعل القيادة في ذريته (وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلدُّنْيَا إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ). وان تستمر الذرية إلى يوم القيامة وعندما نقض بنو إسرائيل الميثاق فان الله جعل القيادة في صلب إسماعيل عليه السلام.

في يوم عاشوراء قال الإمام الحسين (ألا إن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذل وهيئات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون).

الإمام علي عليه السلام حين ضرب من قبل ابن ملجم قال (فزت ورب الكعبة) هذه ليست كلمات صدفة خرجت من الإمام علي بل كلمات لها حسابها القرآني. هذا الفوز هو الفوز بهذا الميثاق. الرواية المشهورة عن الرسول محمد صلى الله عليه واله وسلم (علي وشيعته هم الفائزون) علي هو ذلك المطيع والناصر لله ورسوله ولم ينقض عهده إلى أن استشهد، فكان مصداق الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا).

وكذلك مصطلح التحويل (ولا تجد لسنة الله تحويلا). الشيعة هم الذين يثبتون على الطاعة والنصرة للرسول والأئمة عليه السلام. هناك من بدل وغير الميثاق وهناك من لم يتغير ولم يتبدل.

بعض الأحيان التغيير يستعمل في تغيير المسار والقرآن يقول أن الإيمان والطاعة والميثاق هو في الحقيقة نوع من الاتجاه في الحياة. كل اختيار يختاره الإنسان لنفسه فهو يبين لنفسه اتجاه ووجهة

معينة. قال اﷻ تعالى (ومن يسلم وجهه إلى اﷻ وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) يعني تعطي اختيارك اﷻ سبحانه وتعالى وبالتالي رضوان اﷻ وجنته البهية (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَاً عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَدِيْعِكُمْ السَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

لعل أسمى اللذائذ في الجنة هي النظرة إلى اﷻ (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) هذه المعرفة باﷻ سبحانه ليست معرفة ذهنية بل معرفة الذوق. إذا غير الإنسان في اتجاهه إلى الشيطان فسوف يفقد الدنيا والآخرة.

ولنا في حدث كربلاء مصاديق عملية من كلا النوعين فهناك من تحول من السلب إلى الموجب وبالعكس.